بلقيس

ملكة سبأ

لم تحظ ملكة على مر التاريخ بمثل ما حظيت به الملكة بلقيس من مكانة عالية، وترف أسطوري، وكنوز تفوق التصور.

ولقد نالت هذه الملكة درجة عالية من المجد، ليس بسبب ذكائها ودهائها فحسب، ولا بسبب علمها وثقافتها الرفيعة وسعة إطلاعها فقط ــ ولكن بسبب ما وطّنت عليه نفسها من نبذ أي ضعف أنثوي!!

لم يكن طريقها للعرش مفروشاً بالورود، فبعد وفاة الملك الأب، وتولية بلقيس باعتبارها الوريثة الشرعية، واجهتها المحنة الفاصلة ــ فلقد رفض الرعية أن تحكمهم امرأة!!

وكيف يعترفون بها ملكة عليهم، وهي محض أنثى ليس لها براعة الرجال في الشدائد ولا قوة عزيمتهم وسواعدهم، ولا بأسهم في المعارك؟ وهكذا استنكروا من البداية الاعتراف بها والولاء لسلطتها.

كانت مملكة سبأ تنقسم إلى عدة دويلات أو مقاطعات، لكل مقاطعة أمير يحكمها، ويؤمن أملاكه جيش قوي يتصدى للدفاع عن

obeikandl.com

حقوق الأمير والرعية، لكن أحد هؤلاء الأمراء ــ وهو الأمير عمر ذا الأعذار ــ المعروف بقوته وشدة بطشه وبأسه: أعلن عن رفضه أن يدخل تحت حكم امرأة بشكل عملي سريع، حيث رأى أنه أحق بالملك والعرش من هذه الأنثى، التي بدت له سهلة المنال، قابلة للاستحواذ، فلم يتوان عن تنفيذ رغبته وتحقيق مطمعه، فجهز جيشه واجتمع بأمراء المقاطعات، وفيما بين الترهيب والترغيب: كان الجميع قد أقرّوا به: ملكاً عليهم، وكيف لا، وهو الأمير صاحب السجل الطويل في سفك الدماء، والذي لا يردعه وازع من ضمير أو شفقة، فلا يستطيع أحد أن يخالف له أمراً، وإلا سيكون ذلك وبالاً عليه وأسرته، فإن خطط انتقامه من خصومه كانت جنونية تبعث الرعب في قلوب الصغار والكبار، لذلك لم يجد الأمير عمر من يقول له: لا.

وبعد أن استوثق الأمير لنفسه وأخذ عليهم العهود: جهّز جيشه واتخذ طريقه إلى قصر الملكة، ليستولي على العرش هانئاً مطمئناً إلى كونها معركة سهلة!

وهكذا بدت الصورة قاتمة، وليس هنالك من مخرج للملكة الشابة، فإن كبراء البلاد انفضوا من حولها يؤازرون الملك المرتقب، وحتى هؤلاء الذين أقسموا لأبيها بالولاء لها: أصبح يملأهم الذعر من انتقام عمر، فينكثون عهودهم السابقة، ويسارعون

Obeikandl.com

لنيل رضا الأمير: بتخليهم عنها وإعلان طاعتهم له، وليس لها من جيش يتصدى لزحف جيش الأمير عمر، وقد انضمت إليه جميع جيوش الأمراء.

فماذا فعلت هذه الملكة؟!

كان لابد لها أن تنتصر.

إن فكرة التخلي عن العرش: فكرة مستحيلة، وفي نفس الوقت فإن جميع الظروف من حولها تدفعها للهزيمة.

والواقع أنها في هذه اللحظة: كانت مجرد امرأة وحيدة، لكن بلقيس لم تنهزم تماماً.

فقد وضعت خطة لاستعادة ملكها.

خطة تضمن بها النصر والعرش والمجد، خطة تعتمد أولاً وأخيراً عليها وحدها: على مقدرتها، ودهائها، وقوتها، وشجاعتها.

فلقد رأت بلقيس أن تُهدي لعدوها نصراً سهلاً!

وهكذا: مهدت له الطريق إلى العرش، ووضعت تاج الملك في متناول يديه، بل لقد فرشت له الأرض، وزينتها بالأكاليل، وجهزت القصر الملكي لاستقباله بالزينات والعطور، وكأنها تقول له: رجاءً، تفضل تاج الملك! أما هي فقد هربت من القصر قبل وصوله، واختفت عن الأنظار، وظل ذلك لغزاً يستعصي على الفهم، ويشغل بال الجالس على العرش، إلى أن بعثت إليه توعز له برغبتها في

المثول بين يديه كامرأة تطمع في عطفه وحمايته، وليس كملكة تبحث عن التاج.

وهكذا أثارت بلقيس غروره الذي أسكره النصر السهل والعروش المستسلم، وراقه أن سليلة الملوك تسعى لنيل رضاه، والتقرب منه كبطل حرب، فقبل ـ ملهوفاً ـ لقاءها ووعد بالأمان، بل لقد رأى أنه من المتاح أن يتزوجها، فيضمن بذلك تثبيت دعائم مُلكه.

وهكذا التقى الخصمان..

ذهبت "بلقيس" الملكة الهاربة إلى "عمر" الملك مغتصب التاج والعرش.

ذهبت إليه في كامل زينتها، كامرأة تتأهب للعرس، فبهرته.

وجد أمامه امرأة ليست كمثل النساء

ناعمة، رشيقة، حديثها أخاذ، ثقافتها واسعة، وعلمها غزير، تتكلم واثقة بصوتها الرخيم، فسلبت لُبّه واستولت على مشاعره.

وكيف لا، وهي التي اعتادت مجالسة الملوك؟

تسللت تغزو رجولته بهدوء وقوة ويقين، فما مضى إلا بعض الوقت، وكانت بلقيس قد استحوذت بالكامل على عدوها العنيد، وحين أراد عمر أن يستخلصها لنفسه: أمر حراسه بالانصراف، وأمر بالشراب أن يأتي في الحال، زاعماً لها أنه يريد أن يخلو بها كي يتنادما دونما رقيب، ويصلا ما بينهما من حديث، دون أن

يسمعهما غريب، وعلمت بلقيس أنـــه الآن فـــي قبضتـــها تمامـــاً، وتستطيع أن تفعل به ما تريد وهو نشوان والخمر تلعب به، والهوى يميل به إليها، وهي تبهره بسحرها وخضوعها، مقدمة له الكأس تلو الكأس، وهي تمنيه بالأحلام والوعود، وكلما همّ بها تستمهله برفـــق ولين.

وفجأة ــ قطعت بلقيس حديثها، وكسرت كأسها، ثم استلت سـيفها وصارت امرأة أخرى!

اختفى الود والكلام المعسول والنظرة الهادئة، وحل برود قـــاتل، وفي حزم وقوة واجهته وقالت:

ــ أنت اغتصبت العرش مني وهو حقي وميراثي، والآن هـــذه معركتي لاسترداد ما هو لي.

ولم تمهله سوى لحظات، ثم انقضت عليه كوحش كاســـر كشـــر عن أنيابه، فانتزعت منه حياته، وهكذا دفع حياتـــه ثمنـــاً لطمعـــه، واستهانته بقدرات الملكة.

لكنها أرادت أن تسدل الستار تماماً في وجه من يحـــاول مـــرة أخرى: اغتصاب العرش، لذا كان لابد لها من أخذ العـــهود علـــى الأمراء وضمان طاعتهم.

كتمت بلقيس نبأ موت الملك المغتصب، وأخفت جثته في ركـــن الغرفة تحت بعض الأمتعة، ثم بعثت إلى حكام الأقاليم وأمراء البلاد

وكبار الأعيان والوزراء وكل من له نفوذ وقوة، وكـــانت الرســائل موقعة مختومة بخاتم الأمير عمر، فلم يتوان القوم وحضروا ســريعاً إلى قصر المملكة.

فلما اجتمعوا كلهم، خرجت عليهم بلقيس وقد تهيأت لهم، وبــدت في أعظم حلل وأبهى منظر، فأصابتهم الدهشة، وكانوا قد حســبوها قتلت أو سجنت، ولم تتركهم بلقيس لحيرتهم طويلاً فخاطبتهم قائلة:

ــ لا تندهشوا.. فقد تم بيني وبين الملك صلح مشــروط، وهــو الذي أشار عليّ أن أخبركم ذلك بنفسي قبل أن يلقاكم. فهل تريــدون أن تعرفوا التفاصيل؟

فردوا عليها جميعاً وقد ملكهم الفضول:

ــ نعم.. نعم.. نريد أن نعرف كل شيء.

فأجابتهم بلقيس:

ــ تعرفون مثلي أن الملك عمر لم ينجب، ولــن ينجــب ولياً للعرش، فقد حرمته الآلهة من نعمة الإنجاب، وهكذا فليس هناك من صلبه من يرث الملك، وعليه فقد اتفقنا أن يكون له العرش خالصــاً طيلة حياته، على أن أملك عليكم بعد مماته، وبــهذا نحقــن بيننــا دماءنا، ونحافظ على تماسك واستقرار المملكة، ولقد تعاهدنا علــى ذلك، فما رأيكم؟

أجابوا جميعاً بحماس: ذلك نعم الرأي وليس لنا بعده.

سألتهم بلقيس:

ــ وهل تقرون بي ملكة بعد وفاة عمر وتقسمون على ذلك؟

فلما أقسموا، أخذت عليهم العهد والمواثيق، ثم قالت لهم:

ــ والآن تسمعون من الملك.

ثم قادتهم إلى الحجرة الملكية، وهناك رفعت من فوق الملك الميت الأمتعة، وقالت:

ــ هاكم الملك عمر.. لقد قتلته بيدي حيث اغتصب العرش مني، وإني لأقسم وحق الآلهة أن يكون هذا هو مصير كل من يطمع في عرشي، أن أقضي عليه بيدي.

ثم استأنفت: لقد أقسمتم بالولاء لي من بعده، فما قولكم؟

وهنا لم يجد القوم ما يقولونه، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، وهم يرون الملك الذي كان ينشر الرعب في البلاد مكوماً مثخناً بالطعان.

حط عليهم الصمت إلا واحداً صاح قائلاً: نحمد الآلهة أن خلصتنا من هذا الزنديق، وكنا نحسب أن لن يقدر عليه بشر.

وبعده تعالت أصواتهم ينادون بها ملكة عليهم.

وهكذا أصبحت بلقيس ملكة.

كانت معركتها لاسترداد العرش هي الأولى، لكنها لم تكن الأخيرة.

فبعد توليها حكم البلاد، أخذت على عاتقها توسيع حدود مملكتها، فجمعت جيوش المملكة، وأعادت تنظيم صفوفها وتدريبها على أعلى

obeikandl.com

مستوى، ثم تولت نفسها قيادة الجيش، وتوجهت إلى أرض بابل ففتحتها، وانتصرت على ملوكها، ثم واصلت زحفها وانتصاراتها، حتى ضمت إليها أرض نهاوند وأذربيجان، وبعد أن أخضعت الممالك وضمنت استتباب مُلكها في البقاع، عادت إلى اليمن مظفرة محملة بالغنائم، فاستقبلها شعبها بآيات الافتخار والتمجيد، بعد أن وسعت أرجاء المملكة وعادت بالكنوز والثروات.

لكن بلقيس لم تستسلم لزهوة النصر، ولم تدع هالة العظمة التي أحاطت بها تخدعها، فتهدئ من همتها وتلين جموحها، فقد كان هدفها أن تجعل من سبأ قبلة العالم ومحط الأنظار، وأن تحوز ثروات وغنى ليس مثله بين الممالك، ولا في أنحاء الأرض، فأخذت تعمل بهمة ونشاط: لتحقيق هذا الهدف، فأنشأت الأعمال العظيمة للري والزراعة: مثل سد مأرب وغيره، بينما سيطرت على طريق التجارة بين الشرق والغرب، فأصبحت بلادها كمركز تجاري هام ووسيط لا غنى عنه، يربط تجارة مصر والهند، وكذلك الطرف الجنوبي من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس ماراً بمكة والمدينة، ولقد سلكت هذه الملكة كل الطرق لزيادة موارد بلادها، والاستفادة من إمكانيات المملكة شعباً وأرضاً، يعاونها في ذلك ثلاثمائة واثنا عشر رجلاً من خُلصاء القوم أصحاب الرأي، جعلتهم كمجلس شورى لها، وكان لديها بصيرة نافذة في معرفة

openkanal.com

معادن الرجال، وكيف تستفيد من كل منهم، فكانت تضع الرجل المناسب في المكان المناسب، كما أنها أحسنت اختيار من تثق في عدلهم ورأفتهم بالرعية، فولتهم المناصب الهامة في الدولة كي يكونوا عوناً للرعية لا جلادين عليهم، وقد أدت هذه الحكمة البالغة والبصيرة النافذة والسياسة الطموحة: إلى زيادة كبيرة في موارد الدولة، فامتلأت خزائنها بالذهب.

وهكذا: صارت بلقيس أسطورة في زمانها، حتى قدسها الشعب، وعدّوها ابنة الآلهة، وكانوا يعبدون النار والشمس، فكانت تجلس على كرسي عرشها المصنوع من الذهب المرصع باللآلئ والأحجار الكريمة النادرة، وكان هذا الصرح يضم كما يؤكد علماء الآثار ثلاثمائة وستين طاقة من مشرقه وثلاثمائة وستين طاقة أخرى من مغربه، بحيث تدخل الشمس من طاقة وتغرب من الطاقة التي تقابلها، حتى يسجد لها قومها صباحاً ومساءً، وهذا الصرح: هو الذي جاء ذكره في القرآن الكريم.

ولعل مظاهر الترف الأسطوري والبهرجة الخيالية التي كانت تحيط هذه الملكة، هي التي جعلت اسمها يقترن بالنبي سليمان الحكيم، فالقصة المعروفة جاء ذكرها في التوراة والإنجيل والقرآن، عندما أنبأ الهدهد سليمان عليه السلام بحال مملكة سبأ وعظمة الملكة التي يسجد لها شعبها ويعبدونها دون الإله الواحد الأحد،

فبعث إليها سيدنا سليمان حينئذ يدعوها للإيمان بالله والدخـــول فـــي طاعته.

فلما جلست الملكة يوما على عرشها، فإذا بصحيفة تُلقى عليـــها من المجهول، وكأن هناك قوة غير مرئية هي التي ألقت الرســـالة، فتوجّست خيفة وجمعت حولها مستشاريها مـــن أصحـــاب الـــرأي وقصت عليهم الحدث الغريب، ثم فتحت الرسالة: فإذا هي موجهـــة إليها من نبي اسمه سليمان الحكيم، وأنها بسم الله الرحمـــن الرحيـم يدعوها وشعبها للإيمان والدخول في التوحيد، وتنطوي كلماته علـــى الترغيب والتهديد، وبعد أن تلت عليهم الصحيفة، قالت لهم: أرى أن نذهل صاحب الرسالة: بكنوز وهدايا لم تقع عينه على مثلـــها مـــن قبل، فنرى هل تلهيه هذه العطايا عن حربنا من أجل دعوتنا لدينـــه، أم لا؟!

فلو كان نبياً حقاً فلن يطمع في النعيم الدنيوي وسيرفض الهديـــة، وعندئذ سأوقن أنه فعلاً نبي.

وعندما أيدها القوم: بعثت لسليمان عليه السلام بهديـــة خارقـــة للعادة، حيث انتقت له أربعين شاباً من الوجهاء يتسمون بالوســـامة والملاحة، ولا يوجد أجمل منهم حتى ولا في أبناء الملوك، كذلـك لا يوجد من يضارعهم علماً وثقافة وأدباً وشجاعة، أصحـــاب بســالة ومروءة ومواهب، فكل منهم فيه من الصفات الآسرة ما يُفتخر بـــه

لو كان بحوزة ملك ــ فما بالك بأربعين ــ اجتمعت فيهم كل فضائل البشر، فصاروا أعجوبة زمانهم، ولا يقدر على اقتنائهم أعظم ملك. ثم بعثت معهم مائة وصيف ومائة وصيفة وُلدوا في شهر واحد ممن وُلدوا في ليلة واحدة، وألبستهم جميعاً ثياباً موحدة فأصبحوا يـأخذون العين من جمالهم، وأرسلت معهم كنزاً من الأحجار الكريمة التي لا يوجد مثيل لها في البلاد، وكذلك أرسلت مجموعة من أجود الخيول الأصيلة.

وبدأت الملكة فور إرسالها هذه الهدية: في تجهيز جيشها وإعادة تنظيم صفوفه والدخول في استعدادات الحرب، وهي تقول في نفسها "سيأتي الرد قريباً، وقتها سأعرف من هو هذا الملك"، فلو كان مجرد ملك من ملوك الدنيا مهما علا شأنه فأنا أعز منه بسلطاني وجنودي، حينئذٍ سنحاربه، فما لأحد مهما كان بنا طاقة.

فلما وصلت هدايا الملكة إلى سليمان الحكيم، رد عليها قائلاً: "أتمدونني بمال، فما أتاني الله خيراً مما أتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون".

وهكذا رجعت الرسل إلى بلقيس بما قال سليمان عليه السلام فقالت: "والله عرفت، ما هذا بملك، إن هو إلا نبي، يا قومي هذا ما جاءنا، فلقد رفض الهدايا والكنوز، ولا يريد إلا أن نؤمن بإلهه

الواحد الموجود، وبعثتُ إليه أني قادمة إليك بملوكَ قومي لتحدثنا عن دينك".

ثم توجهت إليه على رأس القوم، فأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يبهرها بمعجزة تذهل عقلها، فأمر واحداً من الجن أن يأتيه بعرشها ــ الذي لا مثيل له في كل الأرض ــ لتجده أمام عينيها حين تدخل قاعة الملك، فلما رأته كادت أن تكذب عينيها.

ولكن مسألة العرش هذه كانت أول الأشياء المدهشة، ولم تكن آخرها.

فبعد أن رأت بلقيس القدرات الخارقة التي كان يتمتع بها سيدنا سليمان، ومعرفته لغة الطير والحيوان، وسلطانه على الأنس والجن وكل الكائنات، وجدت نفسها تتبع هذا الملك النبي الحكيم، وتؤمن أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وقد جاء في الإصحاح التاسع من أخبار الأيام الثاني:

صحيح الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، زدت على الخبر الذي سمعته، فطوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً والسامعين حكمتك، ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سُرّ بك.

وبعد أن أسلمت بلقيس: تزوجها سيدنا سليمان، وكانت بلقيس صائنة لنفسها، فلم يراودها ــ من قبل أن تلقاه ــ حنين المرأة للزواج والإنجاب، بل كانت زاهدة في الرجال.

وربما أرجع البعض هذا السلوك إلى عدم وجود من يضارعها في المكانة، وقد أحرزت مجداً لم يصل إليه أحد من قبلها في تاريخ مملكتها، فلم تجد من بين الرجال من يرقى إلى عظمتها وجاهها أو يستحوذ على إعجابها وتقديرها، إلى أن وجدت هذه الصفات وأكثر في الملك سليمان الحكيم، فوجدت نفسها في حضرة ملك تسانده قوة لا قبل لها بها، مطلع على أسرار كونية تذهل عقلها، وتربك ثقتها، فتجاوبت خلجاتها مع أصداء ندائه، وأخلصت له قلباً وقالباً، ثم راحت تنشر دعوة الحق بين قومها، وقد رزقت الملكة بلقيس بولد من نسل سيدنا سليمان عليه السلام اسمه رحبعم، ويقال إن سيدنا سليمان ـ بعد أن تزوجها ـ كان يلقاها في قصرها بمأرب كلما جاء يزورها، وكان هذا القصر تحفة فنية معمارية وأسطورة في أبهته وجماله، يخدمها فيه ألف وستمائة فتاة من أبكار البنات.

وظلت بلقيس تحيا كملكة معظمة طيلة حياتها، ولم تشهد مملكتها عصراً أزهى من عصرها.

أما ابنها رحبعم ابن سليمان، فقد توفي قبل وفاتها بسنة.

ولما ماتت بلقيس رثاها شعراء قومها، وظلوا يبكون عليها وعلى أيامها: باعتبارها أعظم ملكة.